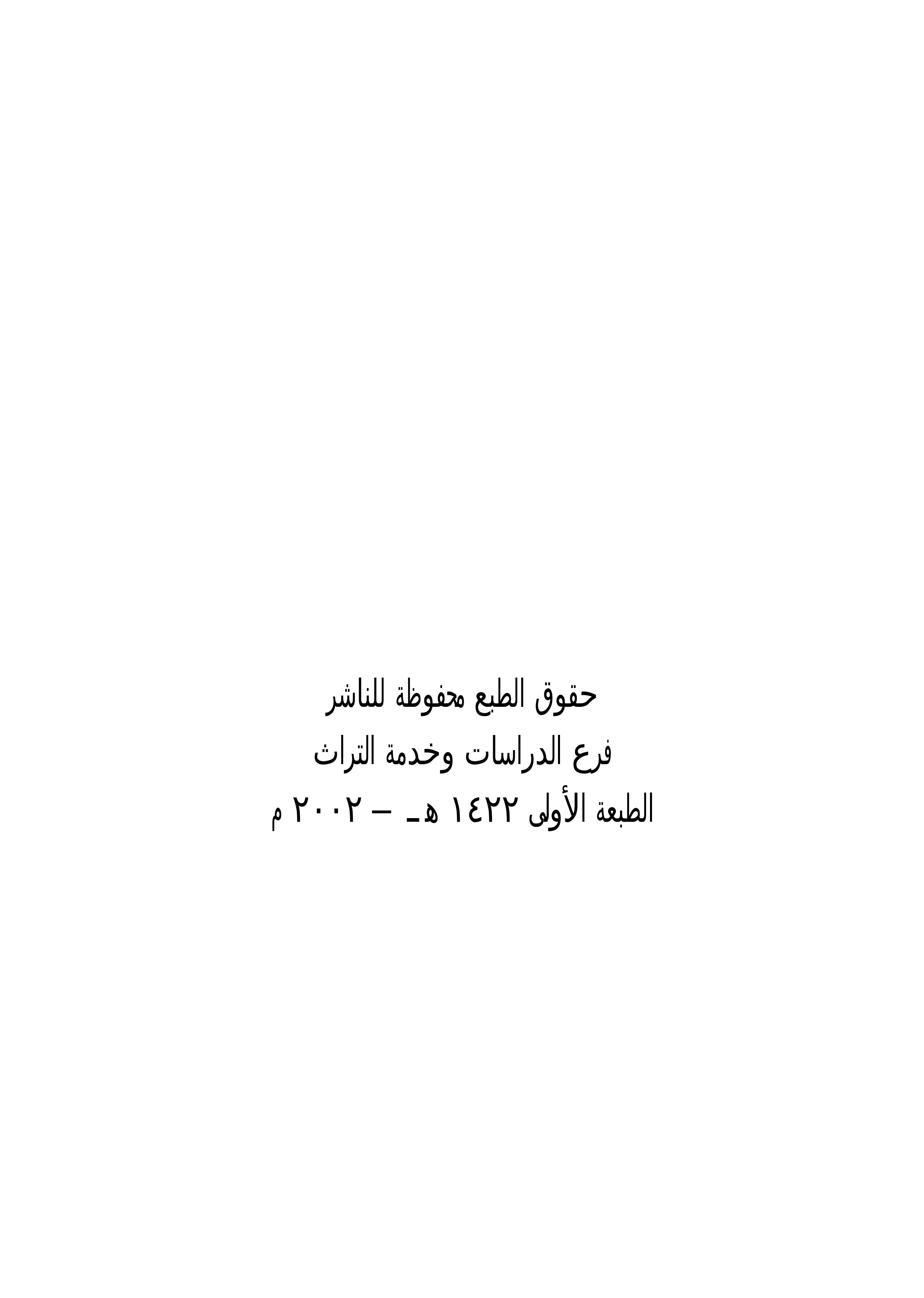

الإمام محمد بن علي باعلوي
« مولى الدويلة »



فرع الدراسات وخدمة التراث

الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠٢ م

سلسلة أعلام حضرموت ٦

الإمام محمد بن علي باعلوي

«مولى الدويلة»

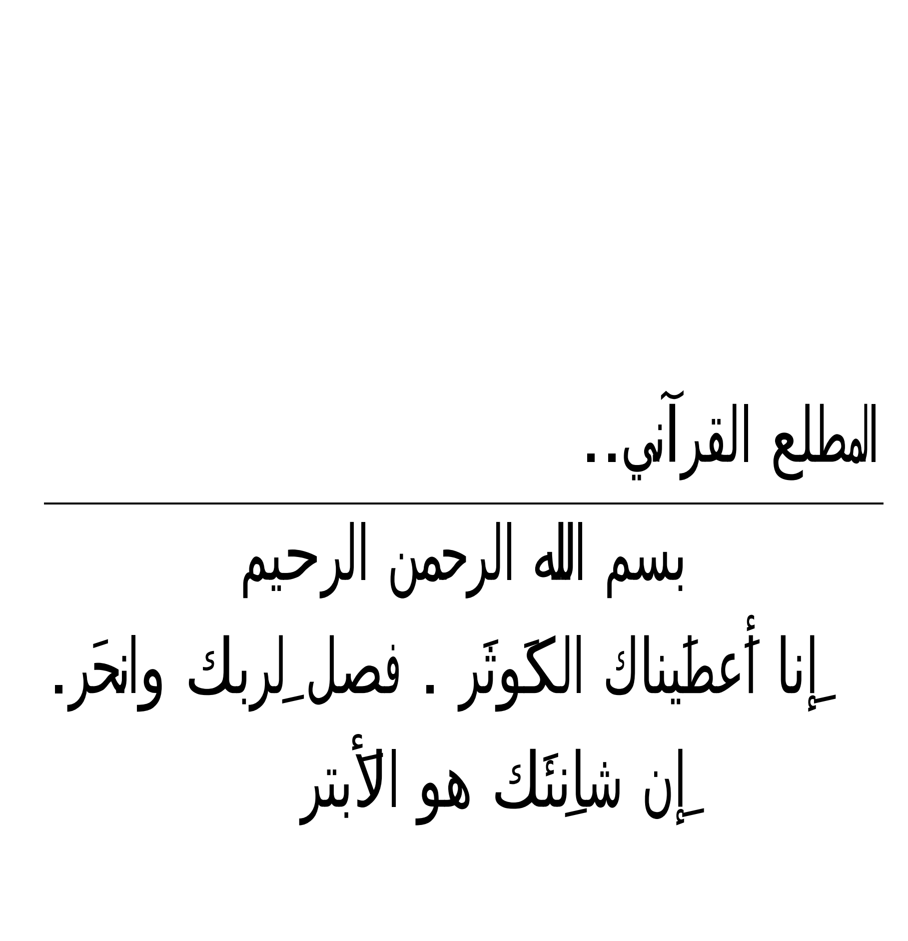
(ت ٦٦٥هـ)

بقلم خادم السلف

أبي بكر العدني ابن علي المشهور

فرع الدراسات وخدمة التراث
أربطة التربية الإسلامية - عدن


بسم الله الرحمن الرحيم



المطلع القرآني..

بسم الله الرحمن الرحيم

ِإنا أعطَيناك الكَوثَر . فصل ِلربك وانحَر.

ِإن شاِنئَك هو الأبتر

الإهداء

إلى شيوخي الأَفَاضِل..

بقيةِ السلَف..

وأمثلةِ الطريقِ في الخَلَف..

وإلى أحفادِ الإمام محمد مولى الدويلة في مشـارق الأرض ومغار ا..

وإلى الراغبين في التعرفِ على نماذجِ ((السفينةِ التي من ركِبها نجا ومن تخلّف عنها هلَك)) ..

المُؤلّف

شاهد الحال

سلام على الشيخ المُقَدمِ في المَـلا
أبي علَوي المنتقـى في الأفاضـل
محمدٍ الحاوي المحاسـن في العـلا
وسابِق سباقِ الرجـال الأفاضـل
وفـرع نمتـه دوحـةٌ نبويـةٌ
له حسن سمتٍ عـالي وفَضـائل
فريد أثيلٌ أوحد العصـر ماجِـد
صفِي مصفى مِن جميـع الرذائـل
محِب ومحبوب حبي بالوصال والـ
ـعطايا زعيم القومِ حلْو الشمائل

((الغرر)) ص٣٩٥

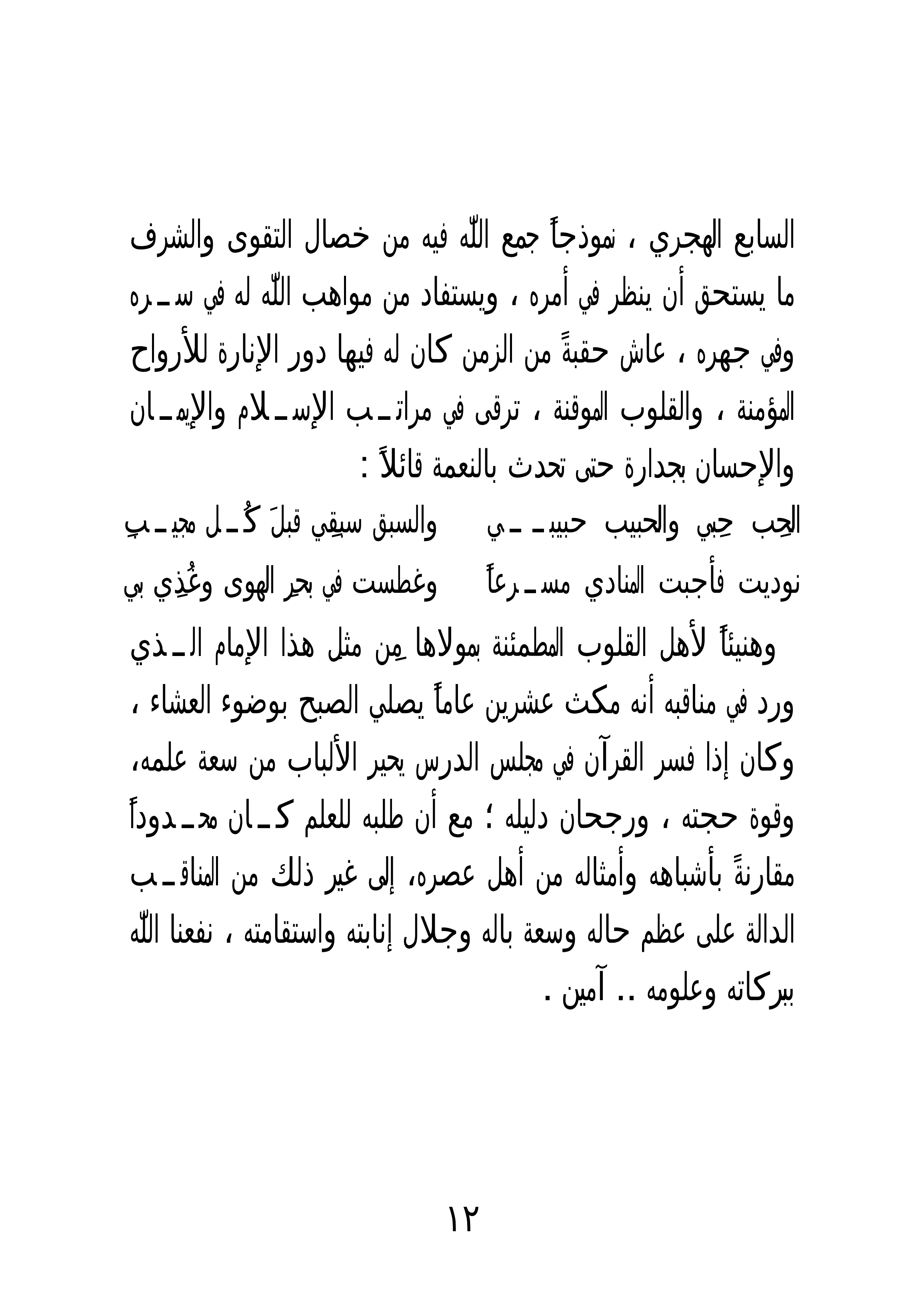
سلسلة نسب الإمام محمد مولى الدويلة

هو الإمام محمد مولى الدويلة بن علي بن علوي ابن محمد الفقيه المقدم بن علي بن محمد صاحب مرباط ابن علي خالع قسم بن علوي بن محمد بن علوي بن عبيدالله ابن أحمد المهاجر ابن عيسى ابن محمد النقيب ابن علي العريضي ابن جعفر الصادق ابن محمد الباقر ابن علي زين العابدين ابن الحسين السبط ابن علي وفاطمة رضي اللّه عنهما بنت رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم .

المدخل

الحمد للّه الذي ألبس أولياءه تيجان المهابة والمفاخر ، وجعلهم أَدِلاَّءَ في العالم المحسوس على مكنون العلم المضنون في الباطن والظاهر ، والصلاة والسلام على سيد الأوائل والأواخر ، سيدنا محمد بن عبد اللّه إمام أهل اللّه ، الذي انبثق منه نور الولاية فسرى في القلوب والأرواح والسرائر ، وعلى آله السادة الأكابر ، وعلى أصحابه أئمة الهدى والبصائر ، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم تبلى السرائر .

وبعد فأزف إلى القارئ الكريم نموذجاً مباركاً من رجال القرن


السابع الهجري ، نموذجاً جمع اللّه فيه من خصال التقوى والشرف ما يستحق أن ينظر في أمره ، ويستفاد من مواهب اللّه له في سـره وفي جهره ، عاش حقبةً من الزمن كان له فيها دور الإنارة للأرواح المؤمنة ، والقلوب الموقنة ، ترقى في مراتـب الإسـلام والإيمـان والإحسان بجدارة حتى تحدث بالنعمة قائلاً :

الحِب حِبي والحبيب حبيبـي والسبق سبِقي قبلَ كُـل مجيـبِ

نوديت فأجبت المنادي مسـرعاً وغطست في بحرِ الهوى وغُذِي بي

وهنيئاً لأهل القلوب المطمئنة بمولاها مِن مثل هذا الإمام الـذي ورد في مناقبه أنه مكث عشرين عاماً يصلي الصبح بوضوء العشاء ، وكان إذا فسر القرآن في مجلس الدرس يحير الألباب من سعة علمه، وقوة حجته ، ورجحان دليله ؛ مع أن طلبه للعلم كـان محـدوداً مقارنةً بأشباهه وأمثاله من أهل عصره، إلى غير ذلك من المناقـب الدالة على عظم حاله وسعة باله وجلال إنابته واستقامته ، نفعنا اللّه ببركاته وعلومه .. آمين .

بطاقة تعريف

هو الشريف العفيف العارف باللّه ، البالغ في تـرويض نفسـه با اهدات الطوعية ورياضاته الروحية درجة الكمـال النسـبي ، ومقام الفتح الوهبي بعد الكسبي ، إمام عصره وعين دهره ، واحد الزمان المشهود له بالتفرد ، وحامل لواء الصدق في العمل والتعبد ، شهد له المُصلون بالأمانة في القول والفعل والقصد ، ورضيه العلماء إماماً في الفتوحات الربانية والمواهب النورانية ، ولد بتريم – وهـي حرم الإقليم – وحفظ ا نصف القرآن العظيم ، مات أبوه وهـو صغير فكفله عمه الشيخ عبد اللّه باعلوي ، ورباه وشملـه بنظـره وحسن رعايته ، وسلك به على منهاج طريقته حتى ثبـت علـى الطريق السوي ، ونال بحسن العناية كل سند قوي ، فأخـذ عـن جملة من أسرته أهل العلم والفضل .

في كل حين ترى الأنوار ساطعةً　　تضيءُ للكون من سـر الهـدى
من فجرِ ما ولدوا والنور يغمرهم　　طبعاً وما فارقوا القرآن والكتبـا
هم سادة قد غدوا بالسر مذ برزوا　　وزادهم ر م من فضـله نسـبا

وكانت تريم آنذاك معهداً للتربية والآداب ، ومرتعـاً للتطبيـق العلمي لثوابت الكتاب والسنة ، قوم لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيع عـن

ذكر اللّه وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، وحري بمثل هذا المجتمع المتضافر على الخير أن ينشئ الفتيان على سنن الاتباع .

وينشأ ناشئُ الفتيان مِنا على ما كان عوده أبوه

أخذ الإمام محمد بن علي طريقة أهله وسلفه ، إضافة إلى مبادئ العلوم الفقهية والحديثية والصوفية والقرآنية التي يزخر بها مجتمعه الواسع عن جملة من شيوخ عصره ، وأئمة دهره ، وورد ذلك القول في التراجم .

قال صاحب ((الغرر)) ص١٨٧ نقلاً عن ((الجزء اللطيف في التحكيم الشريف)) للسيد الإمام أبي بكر بن عبد اللّه العيدروس ((العدني)) في معرض وصفه لأخذ السيد عبد الرحمن بن محمد بن علي مولى الدويلة ما مثاله : أخذ الشيخ عبد الرحمن بن محمد الإذن والعهد وعقد الصحبة والآداب عن أبيه الشيخ الصالح الولي العارف ذي العلوم والمعارف الحبر القدوة الفقيه جمال الدين محمد بن علي مولى الدويلة ، وتأدب الشيخ محمد بآداب والده الشيخ علي بن

علوي ، وتخرج بعمه الشيخ عبد اللّه باعلوي[1]، وتربى بسـره في العلم اللدني الباطن والظاهر ، وسلك على منهاج طريقته ، وحـذا حذوه واقتدى به[2] .

رحلته إلى الحرمين الشريفين

رحل الإمام محمد بن علي في شبابه ، ووصل إلى أرض الحرمين ، وأدى ما عليه من النسكين ، وزار جده سيد الكونين ، وأخذ عن جماعة من العارفين والفقهاء الكاملين ، واجتمـع في طريـق رجوعه بالشيخ العارف باللّه علي بن عبد اللّه الطواشي فـاعترف كل لصاحبه بمقامه الشريف ، وكان الإمام محمد بن علي كلما عِلم شيئاً من علم الشريعة عمِلَ به ولا ينـزع رداء العمل عن منكبه[3].

بعض أحواله ومجاهداته

قال في « المشرع الروي » (٢: ٢٠٠) : كـان لـه رياضـات

---

(١) وقد ترجمنا له ضمن هذه السلسلة .

(٢) « الغرر » ١٨٧ .

(٣) « المشرع الروي » ص٢٠١ بتصرف واختصار .

وأحوالٌ ومقامات، وأكثر أعماله قلبيات ، وكان يخفي أعماله عن أصحابه وحتى عن أهله ، وكان الغالب عليه الإقامة بالبادية ، وترد عليه ا أحوالٌ بركتها عليه بادية ، وكان يشتغل بنشر الدعوة إلى اللّه ، وإذا ورد عليه حالٌ من الأحوال النورانية ربما تكلم كلامـاً عظيماً في علوم الشريعة والحقيقة ، والمقصود بالحال : ورود بسطٍ من كثرةٍ أذكاره وتلاوته وطاعاته ، فترتاح نفسه ، ويصفو سره ، فيتكلم بما فتح اللّه عليه ، وقد يرد عليه حالُ قبضٍ أو انزعاجٍ نفسي أو خوفٍ من مقام الحق سبحانه فيظهر ذلك جلياً على تصرفه، وقد ورد في سيرته أنه قد يغشى عليه في حضرة عمه الشيخ عبد اللّـه باعلوي إذا ورد عليه وارد الحال ، وكان يقول لبعض من يعترض عليه ويتحير في حاله : نزل علينا شيءٌ لو نزل على الجبال لدكت.

قال صاحب ((المشرع)) : قام بعضهم يصلي والسيد محمد بـن علي لا زال نائماً في المسجد ، فلما سجد الرجل قال في نفسه : أنا ساجد وقائم ، وهذا مضطجع نائم ، ويقولون: إنه قدوة للعالم، فما رفع الرجل رأسه من السجود بل لزقت جبهته بـالأرض، فتـاب ورجع عن اعتراضه ، فأمر السيد محمد بن علي بعض من عنده أن يرفع رأس الرجل من سجدته ، فلما فرغ مـن صـلاته اعتـذر،

وعاهده على أن لا يعود إلى الاعتراض[1].

قلت : وهذه كرامةٌ تدل على صلاح وصدق صاحب الترجمة ، والحال أن الصلاةَ نافلةٌ ، ولو كانت فرضاً لما تأخر عنها صاحب الترجمة ، ويدل على ذلك كون الرجل يصلي وحده .

وكان الشيخ الكبير العلم الشهير العارف بالله تعالى فضل بن عبدالله يعظمه ويثني عليه ، ويمتثل بين يديه .

وكان لصاحب الترجمة حالات عجيبة ، وأمور غريبة ؛ فأحيانا يلبس ثياب الملوك ، وأحيانا يتزيا بزي الصعلوك ، ومرة يلبس الثياب النفيسة الحسنة ، وأخرى يلبس الشمال الخشنة ، وربما مال إلى صحبة الأعيان والأكابر ، ثم ينفر عنهم ويصحب الفقراء الأصاغر ، وفي بعض الأحيان يجتهد في الأعمال البدنية من القيام والصيام ، فقد روي أنه مكث نحو عشرين سنة يصلي الصبح بوضوء العشاء[2].

---

(١) المصدر السابق ص٢٠٠ بتصرف.

(٢) قلت – والله أعلم – : يعد هذا التقلب في رغبات الإمام ومظاهر حياته وعلاقاته دلالةً على موت النفس وقهرها ، وإلا فالمرء يصعب عليه تغيير عاداته التي أَلِفَها ، فالتربية النفسية التي تلقاها الإمام على أيدي أشياخه وأسلافه هيأته مبكراً لهذا

المقام السامي ، وكانت المجاهدات القلبية والقالبية أساساً في تربية السلف ، وعنصراً هاماً في تركيب وترتيب الأبناء والبنات ، معتمدين على الاختيارات الذاتية المنبثقة عن فهم الإسلام وقواعده.

ومثل هذا معلوم في تاريخ التربية الإسلامية منذ عهد الرسالة مع شيء من التفاوت من زمان إلى زمان، ففي العصور التي كان فيها الرجال يؤثرون الجهاد في سبيل اللّه ، ويجندون طاقاتهم وذواتهم لهذا الهدف السامي كانت المجاهدات القلبية والقالبية تتخذ شكل العسكرية الإسلامية ، فلم يتأخر أحد عن الآداب والسلوك ومفهوم التربية الأخلاقية وهو يحمل السيف في سبيل اللّه ، ولما تغير حال المسلمين بما دخل على بلادهم وعقولهم من أسباب النقض والقبض جنح العقلاء من آل البيت النبوي ، ومن اهتدى بهديهم إلى إعطاء الجهاد مدلولاً ذاتياً يسهم في بناء الإنسان، ويقي المرءَ التباس الوقوع في معركة الدنيا الغرارة ، وحبائل النفس والهوى والشيطان، مع التطلع اليقيني لمستقبل الجهاد المشروع، عندما يأتي اللّه بالفتح أو أمر من عنده .

هذا هو موقف سلفنا الصالح من هذه المسألة ، خلافاً لما يرميهم به أضدادهم من التهم والإلصاقات الغريبة ، حيث إن منهج آل البيت بحضرموت منذ عهد الفقيه المقدم ومن جاء من بعده قد أرسى قاعدةً تربويةً لا يلزمون بها غير أهلها ، ولا يميلون معها إلى وضع الانتقادات لغيرهم في عدم الأخذ بها ، وهي التخلي عن خوض معركة الرياسات وكراسي الحكم والسياسات ، وترك حمل السلاح تحت أي صورة كانت بعد أن عطل الحكام قضية الجهاد في سبيل اللّه ، وصار السلاح وسيلةً للصراع على الحكم والمال والجاه ، فآل البيت لا يموتون في سبيل هذه المطامح الدنيئة ، ومع هذا وذاك فقد شمل الضعف اليوم مدرسة حضرموت كما

توطنه ببادية يبحر

قال صاحب «المشرع» ص٢٠١ : ثم اختار المحل المسمى بـ«يبحر» ، وهو قريب من قبر نبي الله هود عليه أفضل الصلاة والسلام عنده عينٍ جاريةٍ، وبنى دارا واستوطن ، وبنى حوله كثير من جماعته بيوتاً حتى صارت قريةً عامرة ، وبعد مدةٍ من الزمن بنيت قريباً من قريته قريةٌ أخرى ، فقيل للأولى «يبحر الدويلة» ، ومعنى «الدويلة» في كلام حضرموت «العتيقة»[1] ، وأطلق عليه

شمل غيرها ، ونقَض الكثير من المنتسبين إليها ثوابت السلف ، وخاضوا معركة الجاه والمال والحكم على ذات الوتيرة التي خاضها أضدادهم وأندادهم .

ومدرسة السلف لا تعترض على أحد بعينه ؛ ولكنها لا ترى في معركة الحياة المعاصرة بكافة نماذجها صورة البديل السليم ، بل لا زال الإسلام الحق غريباً كما بدأ غريباً ، منعدم التأثير في كثيرٍ من المظاهر الفكرية والعلمية والعملية والسياسية والاقتصادية والاعتقادية ، وحرِي بالمنتقد على قرار السلف الصالح أن يبدأ بنقد البدائل التي يريدها أن تصنع الإسلام في الواقع المغلوب ، وعندها يلزمنا جميعا أن نبارك العود إلى مدلولات الجهاد المشروع ونتخلى -نحن المتأخرون خصوصا الذين لم يبق لنا من منهج السلف غير الاعتداد به ، والتغني عليه ، والافتخار برجاله- نتخلى عن مواقفنا السلبية لنخوض مع غيرنا من أهل «لا إله إلا الله» معركة البناء الإسلامي المتكامل ، وإن غداً لناظره قريب.

(١) «المشرع الروي» ص٢٠١.

بعد ذلك « مولى الدويلة » .

وكان كثير من السلف – رحمهم الله – يميلون إلى حياة البادية ، ويخرجون عن المدن وزحام الناس ليصفُو لهم حال العبادة والرضـا والأنس بالله ، ولنشر الدعوة بين البوادي ، وهم في غالب الأحوال أهل قلوبٍ سليمةٍ وأذهانٍ صافيةٍ يستجيبون للداعي ، ويأنسـون بأهل الله ، ويعتقدو م، وتؤثر فيهم كلمات الداعي ، ويحرصـون على العمل والاقتداء إذا وجدوا من يحسن البلاغ.

والإمام محمد بن علي مولى الدويلة وجد في بادية يبحر وما حولها قلوباً سليمةً ، فخيم بتلك البادية وانتفع به خلق كثير.

بعض كلامه وأشعاره

مما يدل على مقام الرجل وحاله ما يؤثر عنه من كلامٍ نثـري أو نظمٍ شعري ، وقد ورد في كتب التراجم من أقواله الحكيمة الدالة على عظم حاله وعلو مرتبته ، فمن ذلك قوله : نذكر الله تعـالى باللسان وبالقلب ، ثم تفنى الحروف ، ثم يفنى اللسان ، فيبقـى في القلب شمعةٌ من نورٍ متصلةٌ بالله عز وجل .

وكان يقول : أعرف من نفسي ثلاثَ خصـال ، الأولى: أني لا

أكره الموت ، فإن من كره الموت كره لقاء اللّه . الثانيـة : أني لا أخاف الفقر ، لأني أعرف أن ما عند اللّه أقرب مما في يدي ، الثالثة : لا أكره أن أضيف وإن لم يكن عندي شيء[1] .

قال الشيخ عبد القادر العيدروس -معلقاً على كلام المترجم- : فانظر كيف جمع التصوف كله في هذه الكلمات مع كونه أُمياً ، فإن الشيخ ما نقل عنه أنه اشتغل بتحصيل العلم ، ولا قرأ شيئاً من الكتب . انتهى[2] .

قلت : ومثل هذا كثير في حياة السلف ، فمنهم من لم يشتغل بالعلوم الشرعية تحصيلاً وتحقيقاً وروايةً ودرايةً ؛ ولكنه على قَدمِ الاتباع وسننِ الاقتداء ، وخاصة أن مثل هؤلاء كانت بداياتهم مشحونةً بنصيبٍ من الطلب للعلم الواجب ، ثم انصرفوا عن الظهور وتقرير العلوم لكثرة المشتغلين بذلك ، ولربما رأى بعضهم عدم الأهلية في نفسه فاشتغل بالطاعة وتحقيق المعاملة فيما بينه وبين مولاه .

ومما يدلنا على اطلاع الإمام محمد بن علي على كثيرٍ من العلم

---

(١) أي: أطعم الضيوف.

(٢) ((المشرع الروي)) ص٢٠١ .

الظاهر والباطن -وإن كان يوصف بعدم الاشتغال بالعلم[1]- ما أورده صاحب «المشرع» ص٢٠١ : حكي أنه أراد أن يؤم الناس في مسجد بني علوي المشهور فمنعوه ، وقالوا له : أنت بدوي لا تصلح للإمامة ، فلما صلوا جلس يتكلم على سورةٍ من القرآن بكلامٍ عظيم ، فعلموا أن هذا من العلم الوهبي. اهـ .

وأما مقالته الشعرية فقليلة ، ومنها :

الحب حِبي والحبيب حبيبي والسبق سبقِي قبلَ كُل محبِ

نوديت فأجبت المنادي مسرعاً وغطست في بحرِ الهوى وعُذِي بي

لي تسعةٌ وثلاثةٌ مع تسعةٍ والعقد لي وحدي علا بنصيبي

ما تعلموا أني المقدم في الملا ليلت سِري بالیثربي سري بي

وبرغم أن البيت الأخير يشكل مغزاه على كثير من المتأخرين إلا

(١) يعتقد أن مقصود المترجِم للإمام محمد بن علي بعدم الاشتغال بالعلم : أنه لم يحترف الطلب ولم يشتغل بمطالعة الكتب وتعليم الناس كما هو حال أقرانه وأشباهه ، وأما ثوابت العلم الواجب فحضرموت كان فيها العامل والأجير والعبد يحسن أساسيات المعرفة ، فضلا مثل هذا الإمام الذي ولد في بيت العلم ومنبعه .

أن الفهم للقصد ومعرفة أسلوب العصر وقاموس التصوف الفخري يسهم في جلاء الغموض في المعنى ، فالحقيقة التي يدركها الجميع أن ذرية المرء في ظهره ، والمعلوم نصاً أن ذرية آل البيت النبوي هم في صلبه صلى اللّه عليه وآله وسلم ، ولو كانوا في ظاهر الحال من صلب علي بن أبي طالب ، فيشير الإمام في أبياته الفخرية أنه كان بمعية جده ليلة الإسراء في عالم المصاحبة لأنه في ظهره ، وهذا المعنى كثيراً ما يتعرض له الشعراء الصوفيون ، ويجب أن نفهمه على مقتضى الحال الملائم لفهم الناس ليزول الإشكال[1].

ومن أشعاره الذوقية :

ولما حضرنا للسرورِ بمجلسٍ	أضاءت لنا مِن عالَمِ الغيبِ أنوار
وطافت علينا للعوارفِ خمرةٌ	يطوف بها في حضرةِ القُدسِ خمّار
فلما شربناها بأفواهِ كَشفِنا	أضاءت لنا منها شمُوس وأقمار
تخُاطب أرباب القلوبِ بلُطْفِها	وتبدو لنا وقت المسرة أسرار
رفعنا حجاب الأُنسِ بالأنسِ عنوةً	وجاءت إلينا بالبشائر أخبار

(١) ناقشنا هذا الإشكال بإسهاب في كتاب ((شروط الاتصاف لمن يقرأ كتب الأسلاف)) ، مطبوع .

وغِبنا ا عنـا ونلنـا مرادنـا ولم يبق مِنا بعـد ذلـك آثـار
وخاطَبنا في سكْرِنا عند صحونا كريم قديم فائض الجـودِ جبـار
وكاشفَنا حتى رأينـاه جهـرةً بأبصارِ فَهمٍ لا تواريـه أسـتار

قلت -واللّه أعلم- : هذه الأبيات لا تدل إلا على رجلٍ سـمى في الذوق والعلم والعمل والحال ، وهي من صـنف الفخريـات الصوفية .

وللصوفية مِزاج فقري ومزاج فخري[1] ، وهو مـا يعبـر عنـه بالحال، وإمامنا مولى الدويلة يظهر من أشعاره غَلَبةُ المزاج الفخري،

(١) المزاج الفقري هو حال الاعتراف وشهود التقصير في التشمير ، ويعبر عنه صاحبه بالعبارات الدالة على الخوف والقلق والاعتراف للّه تعالى ، وإظهار الفقر والعوز والحاجة ، مثل قول الإمام الحداد :

أنا عبد صـار فَخـري ضِمن فَقْري واضـطِراري

أما المزاج الفخري فهو غلبة حال الأنس وظهور حال التحدث بالنعم كمـا هو في الأبيات المنسوبة للإمام مولى الدويلة ، أو ما يذكر مـن أبيـاتٍ للشـيخ أبي بكر بن سالم أو لغيره من السلف .

وهذه الأبيات والقصائد تفهم بما يلائم مقتضى الحال وتفسر إشكالا ا ومـا يغمض منها بدراسة قاموس العصر الصوفي وما يتحدث به الأشباه والأمثال وماذا تعنيه عبارا م الفخرية وما القصد منها .

وهو بارز في شيوخ تلك الأعصر والأزمنة .

وإذا تأملنا ألفاظ القصيدة من خلال وحدتها الموضوعية متسلسلةً من بدايتها إلى ايتها سنجدها تدور في معنى الإحسان ((أن تعبد اللّه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) ، ومن لم يدرك معنى الإحسان منا لا يليق به الاعتراض على من تحقق بمبناه ومعناه ، فالاعتراض لا يدل على رغبة في فهم الحقيقة والوصول إليها ، وإنما يدل على اصطدام الأفق الضيق بما هو أشمل منه وأوسع ، فلا يتأتى للعاقل أن يجرد الشمول والمعاني الواسعة ليرضِي عنها أرباب المفاهيم القاصرة ، والواجب في مثل هذا الحال إظهار المعاني بما يناسب العقل القاصر لينزاح عنه إشكاله ، هذا إن كان صاحب الإشكال من الراغبين حقا في فهم المشكل ، وأما إذا كان من عشاق عقدة الإشكال الذين يحملون المعاني على مقتضى فهومهم الجائرة ، و ا يدندنون في ا الس والمحاضرات كقادح اعتقادي ؛ فلنا معهم مقال آخر ونقاش لا تسعه التراجم المحدودة ذات الهدف التعليمي[١] ، واللّه يتولانا وإياهم ، ويرزقنا السير إلى ما يرضيه ، ويوصلنا إلى مراضيه . آمين .

---

(١) راجع هذا الموضوع بتوسع في ((شروط الاتصاف لمن يقرأ كتب الأسلاف)) .

كرامات الإمام محمد بن علي مولى الدويلة

سبق وأن تناولنا مسألة الكرامات في سلسلة الأعلام السـابقة ، ولكنا نرى أن إعادة التناول لها مع مناسبتها في كل ترجمة أمـر لا مناص منه ، فكافة الشيوخ الذين تطرق تراجمهم لابد أن نجد لهـم مساحة واسعة من الترجمة تظهر لنا قيمة المترجم له مـن خـلال كراماته ، وكان هذا مطلباً أساسياً في تلك العصور يتناسب مـع ثقافا م واستعدادا م ، أما في عصرنا اليوم فالذين يحبون الكرامات وأهلها لا يتجاوزون أصابع اليد في ا تمع الواحد ، وإن كانوا أكثر من ذلك فما هم إلا من عوام الناس الذين تتغلب عواطفهم علـى عقولهم ، أما جيل الحداثة الذي آمن بعلم النظريات ، وتـدرج في مدارس الشهادات ، وصار طموحه الأكبر ترقيهِ في العلوم النظريـة والمراتب الدنيوية فلا يرى في هذه المسائل شيئاً يعنِيه ، وإن عناه من ذلك شيءٌ فقد يكون مجرد دراسةٍ لظاهرة من الظواهر الغريبة عند الصوفية ، ولربما رآه البعض من الأمراض والأعراض التي أصـابت المسلمين في عصور الانحطاط ، وهذا كله كما نراه ويراه الكثير من الناس يعود إلى عوامل كثيرة أهمها تأثر المدرسة الإسلامية بعمومها بالعلمنة الغربية والشرقية بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، إذ نعلم أن

كثيراً من التحليلات التي طعنت في الجوانب الروحية لدى التصوف والصوفية إنما جاءت بفعل الدراسات الأجنبية الاستشراقية ، وهذه الدراسات منذ عصر الثورة الصناعية وهي تنسج الأقاويل المشككة في الدين كله وفي شخص رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسـلم والقرآن ، فضلا عن تشكيكها في منهج فرعي كالتصوف .

ونحا هذا المنحى فيما بعد عدد من مؤسسات التعليم والثقافـة في العالم العربي والإسلامي بعد مرحلة التفكك وتقسيم تركة الرجـل المريض ((كما كان يطلق على دولة الخلافة الإسلامية في تركيا)) ، وتناولت هذه المؤسسات قضية التصوف والصوفية بمنهج استشراقي بحتٍ ، اللّهم إلا ما كان من بعض المخلصين المنصفين الذين أبـوا صريح الإفراط المذموم لدى الغلاة ، وأما البقية -وهم الكثرة- فقد صار الأمر أشبه ما يكون بالعقدة النفسية دون تثبتٍ ولا تمحصٍ ، تبعاً للإعلاميات المطروحة في المرحلة .

وبعد هذه المقدمة التي أردنا ـا إيضـاح مسـألة الكرامـات وملابسات إيرادها في التراجم نقول : إن كثيراً من شيوخ التصوف الذين جرت لهم هذه الكرامات كانوا يكرهون الكلام فيهـا ، أو نشرها ، أو نسبتها إليهم ، وآراؤهم في ذلك مبسوطة في مؤلفا م ،

واعتبرها بعضهم عيبا يقدح في حال الولي عند أشباهه وأمثاله ، وفي مدرسة حضرموت بالذات انبرى عدد من الشيوخ إلى منع ذكـر كراما م ، وإيقاف أتباعهم وتلامذ م عن إظهارها .

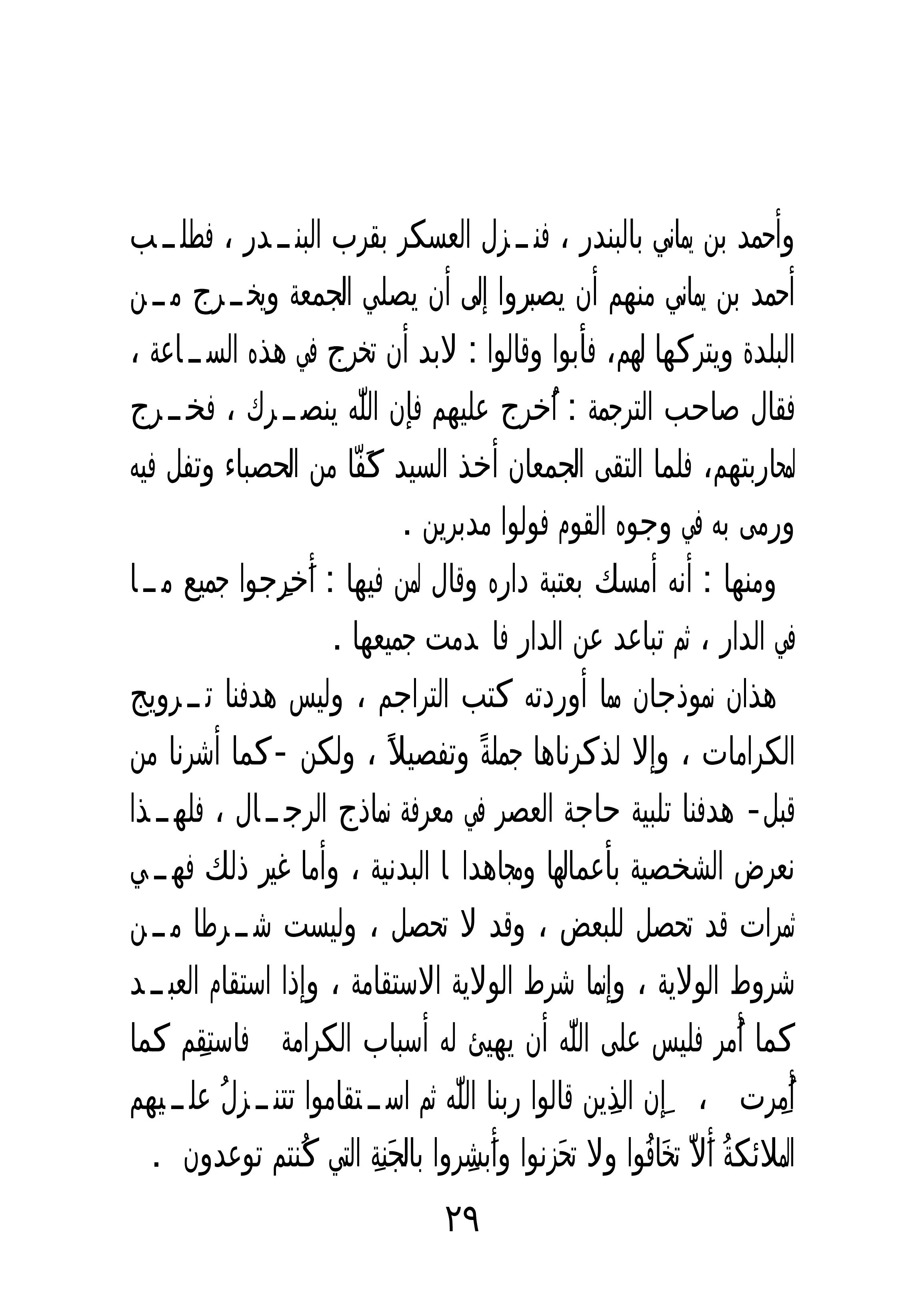
و ذا نرى أن مخاطبة جيلنا المعاصر يجب أن تنحى منحى الرفـق م وعدم إثار م ، ويلزم حملة الأقلام تقديم نماذج الأولياء بأسلوب يميز الفضائل والمحاسن العملية والعلمية التي تملأ قلوب الجيل باحترام الرجال والاقتداء بمواقفهم الاجتماعية ذات الأثر البالغ في تحولات المراحل وإصلاح فاسدها ، وتبقى الكرامات وأخبار الأحوال ضمن التراجم التقليدية ، وإذا اضطر الكاتب لسبب مـا ، أو المتحـدث لإبراز نموذج من هذه الكرامات يجب أن يشفعها بالتعليل المنطقـي ليقرب فهمها للقارئ والمستمع[(١)].

وقد ذكر بعض الكرامات صاحب ((المشرع الـروي)) ص٢٠١ فقال :

منها أن سلطان اليمن أرسل عسكراً إلى أحمد بن يماني سـلطان حضرموت ليأخذ منه بندر الشحر ، وكـان صـاحب الترجمـة

---

(١) راجع هذا الموضوع بتوسع في ((شروط الاتصاف لمن يقرأ كتب الأسلاف)) .



وأحمد بن يماني بالبندر ، فنزل العسكر بقرب البندر ، فطالب أحمد بن يماني منهم أن يصبروا إلى أن يصلي الجمعة ويخرج من البلدة ويتركها لهم، فأبوا وقالوا : لابد أن تخرج في هذه الساعة ، فقال صاحب الترجمة : أُخرج عليهم فإن اللّه ينصرك ، فخرج لمحاربتهم، فلما التقى الجمعان أخذ السيد كفًّا من الحصباء وتفل فيه ورمى به في وجوه القوم فولوا مدبرين .

ومنها : أنه أمسك بعتبة داره وقال لمن فيها : أُخرِجوا جميع ما في الدار ، ثم تباعد عن الدار فا ـدمت جميعها .

هذان نموذجان مما أوردته كتب التراجم ، وليس هدفنا ترويج الكرامات ، وإلا لذكرناها جملةً وتفصيلاً ، ولكن -كما أشرنا من قبل- هدفنا تلبية حاجة العصر في معرفة نماذج الرجال ، فلهذا نعرض الشخصية بأعمالها ومجاهدا ا البدنية ، وأما غير ذلك فهي ثمرات قد تحصل للبعض ، وقد لا تحصل ، وليست شرطا من شروط الولاية ، وإنما شرط الولاية الاستقامة ، وإذا استقام العبد كما أُمر فليس على اللّه أن يهيئ له أسباب الكرامة فاستقِم كما أُمِرت ، ِإن الذِين قالوا ربنا اللّه ثم استقاموا تتنزلُ عليهم الملائكةُ ألاّ تخَافُوا ولا تحَزنوا وأَبشِروا بالجَنةِ التي كُنتم توعدون .

ومما يستحسن ذكره كشاهدٍ يقيني على صدق أحـوال هـؤلاء الرجال من أمثال إمامنا الشيخ محمد بن علي مولى الدويلة شـهادةُ معاصريه ، فهذا الشيخ عبدالرحمن الخطيب يعترف بفضل ومقـام الإمام محمد بن علي فيقول فيه :

يحِق لكم يا ابن الكرامِ التفـاخر كما أولُ الفضلِ لكم والأواخـر
فكم شاع في الآفاق فَيض فَضلِكُم وأسراركم ما للورى الكل غامر
بكم تدفع الأسوا عن الخَلْقِ والبلا وفي جاهِكُم تنشا السحاب المواطر[1]

وقال عنه مؤلف ((الغرر)) ص٣٩٥ : كان من أجلاء المشـايخ العارفين ، وأكابر الأولياء الكاملين ، ورؤساء الحضرة المقربين ، ذو القدم الراسخ في التمكين ، والباع الطويل في أحكام الدين .

وقال صاحب ((المشرع)) ص١٠٢ : هو الإمام الذي باسمه تنشـرح الصدور ، العارف الذي بوجوده روض الفضائل معمور ، خصه اللّٰـه بأوفر حظ من العلا والإحسان ، باتفاق أهل العلم والعرفان .

---

(١) ((المشرع الروي)) ص١٠٢ .

وفاته رحمه اللّه

قال صاحب ((المشرع)) ص١٠٢ : ولم يزل طائعاً لمولاه ، إلى أن وافته الوفاة ، فانتقل إلى رحمة اللّه تعالى يوم الاثنين لعشرٍ خلَونَ من شهر شعبان سنة خمس وستين وست مئة ٦٦٥ ، ودفن في مقـبرة زنبل، وخلف من بعده من الأبناء الشيخ علوي ، والشيخ علـي ، والشيخ عبد اللّه ، والشيخ عبد الرحمن ، وبنت اسمهـا علويـة ، رحمهم اللّه رحمة الأبرار ، وجمعنا م بعد طـول الأعمـار في دار القرار ، في جنات تجري من تحتها الأ ار . آمين .

وكان الفراغ من جمع هذه الترجمة مساء الاثنين

الثاني والعشرين من جمادى الثاني

عام تسعة عشر وأربع مئة

وألف من الهجرة

النبوية بجدة

المحروسة

الفهرس